230

الأبحاث والدراسات

رحلة في فكر مؤرخ عصره ...

المنتمي لوطنه الأستاذ الدكتور

غيثان بن علي بن جريس (*)

أ.د. محمد متولي منصور

(*) دراسة منشورة في كتاب: مواكب الأقلام : قراءات وتعليقات في التاريخ الإسلامي بمكتبة الدكتور غيثان بن علي بن جريس العلمية ، لمحمد بن مُعبِّر ، (الطبعة الأولى)(الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م). ص ص ٥٠٣ – ٥١٤ .

الملحق الثالث

رحلة في فكر مؤرخ عصره .. المنتمي لوطنه

الأستاذ الدكتور غيثان بن علي بن جريس

بقلم

أ.د. محمد متولي منصور

أستاذ الدراسات اللغوية بجامعتي

الأزهر والملك خالد

(تعريف بكاتب هذا الملحق)

الأستاذ الدكتور : محمد متولي منصور .

ولد سنة ١٩٥٥هـ في أشمون بالمنوفية (مصر) .

مؤهلاته العلمية :

١- (الإجازة العالمية) ليسانس اللغة العربية : جامعة الأزهر بالقاهرة ، سنة١٩٧٩م.

٢- (شهادة التخصص) الماجستير في أصول اللغة بعنوان (الدراسات اللغوية عند الحريري في ضوء كتابه(درة الغواص في أوهام الخواص): كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر بالقاهرة ١٩٨٥م، بتقدير (ممتاز) .

٣- (شهادة العالمية) الدكتوراه في أصول اللغة بعنوان (ابن منظور اللغوي: منهجه وأثره في الدراسات اللغوية): كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر بالقاهرة١٩٨٩م، بـ(مرتبة الشرف الأولى) .

بعض مؤلفاته :

١- اللغة العربية وأصواتها . ٢- بلوغ الأرب في لهجات العرب .

٣- علم التجويد القرآني — دراسة تطبيقية .

٤- من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم .

٥- آراء الرازي في مختار الصحاح — دراسة نقدية لغوية

٦- النظام الصوتي في اللغة العربية — دراسة تحليلية في سورة الواقعة .

٧- آراء السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) دراسة لغوية .

٨- المد والقصر في ضوء علمي : الأصوات والتجويد .

٩- التغريب بين اللغة والثقافة .

١٠- اللهجات والدلالة في كتاب (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فلقد أنعم الله عليَّ بقراءة الجزء الرابع من السفر القيِّم : القول المكتوب في تاريخ الجنوب : عسير وجازان والقنفذة الذي أعده مؤرخ عصره الأستاذ الدكتور غيثان بن علي بن جريس أستاذ التاريخ بجامعة الملك خالد ، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٣م الرياض مطابع الحميضي .

وما كدت أفرغ من قراءته حتى اجتمعت عندي مجموعة من الرؤى والأفكار أبى قلمي إلا أن يسطرها فيما يأتي :

أولاً : هذا العمل يعد عملاً موسوعياً ، يحتاج إلى فريق كبير من الباحثين والدارسين والمتخصصين ، وحيث إن الذي قام بهذا العمل هو فرد وحده ، فهو من وجهة نظري يُعدّ نسيج وَحْدِه ، فالعمل فيه جهد فائق يُذكر لصاحبه فيُشكر.

فالمؤلف قد جاب كثيراً من المناطق التي وقعت فيها الأحداث ، واستعان بكثير من أصحاب البلدان والمواضع التي زارها ، وذلك كله سعياً وراء توثيق المعلومات التي قام بتوثيقها في مؤلفه هذا القيم خير توثيق ، مما يدل على شغفه بالعلم ، وحُبّه للتاريخ ، خاصة تاريخ بلاده ، ويقيني أنه أمضى حياته دارساً وباحثاً وأستاذاً يغوص في أعماق بحار التاريخ العذبة يستخرج منها الدرر الغالية واللآلئ الثمينة ، وذلك كله بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية ، والمعلومة الموثقة ، ليهديها بعد ذلك إلى الأجيال تلو الأجيال ، لربط الأجيال بتاريخهم العظيم

ومجدهم التليد ، ليتعرفوا على أسباب مجدهم وليؤكدوا أصالة محتدهم ، وعراقة أنسابهم ، ومصدر عزهم ، وتلك - لعَمْري — لفائدة عظمى نجنيها من وراء قراءة هذا السِفْر العظيم .

ثانياً : يؤكد هذا العمل روح الانتماء للوطن ، هذه القيمة العظيمة التي فقدناها أو كدنا أنا نفتقدها في أيامنا هذه ، وديننا الإسلامي دين يحث على الانتماء للوطن، وحبه ، والتفاني في الإخلاص له ، ألم يلتفت الرسول ﷺ إلى مكة وهو يغادرها مهاجراً إلى المدينة وخاطبها بقوله : (والله إنك لتعلمين أنك أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليَّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت) .

إنه قمة الانتماء للوطن عامة ، وللموقع الذي ولد فيه الإنسان وعاش فيه صباه وشبابه وجُلَّ حياته خاصة ، وأتذكر هنا أن رجلاً سأل الرسول ﷺ وقال له: يا رسول الله : أمن العصبية أن يحب الرجلُ قومه ؟ قال : (لا ، ولكن العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم) ، وأوطاننا في هذه الآونة بالذات ، ومراتع الصبا ومواقع الذكريات في مسيس الحاجة إلى حبنا ، وإلى تأكيد انتمائنا، وهذا العمل الموسوعيّ يدل دلالة واضحة لا خفاء فيها ولا غموض أن مؤلفه غيثان بن جريس مُحِبٌ لبلاده شديد الانتماء لها ، لا يكلّ لحظة ، ولا يملّ دقيقة في البحث والدرس والتنقيب ، ومواصلة ليله بنهاره ، ليخرج لنا بين الحين والآخر سفراً من الأسفار العظيمة ، وقد أربت مؤلفاتُه على المئة ، أي وربيّ ، إنه لصبر في مجال البحث ومصابرة ، وإنه لتفانٍ في العلم وفي خدمة العلم، وإني لموقن أن هذا من العلم النافع ، الذي ينفع صاحبه في الدنيا ، ويمتد نفعه إلى الآخرة ، فما أكثر الأجيال

التي ستنتفع بهذا العلم ، وذاك الفكر ، فهنيئاً لك أخي غيثان / بعقول أنرتها ، وأفكار أثرتها ، وشباب دللتهم على الطريق .

ثالثاً : أثار إعجابي وأنا أكحل عيني بقراءة هذا الكتاب ، تلك الرحلات التي قضاها المؤلف ما بين شرق وغرب ، لتوثيق معلوماته ، بل لتدب الحياة في معلومات الكتاب ، إذ يحرص المؤلف الحاذق على مخاطبة العلماء والخبراء وكبار السن ليوضّح فكرة ، أو ليوثق معلومة ، والرحلة في طلب العلم منهج إسلامي أصيل ، وحين نقرأ سورة الكهف التي سَنّ لنا الرسول ﷺ قراءتها في كل يوم جمعة أو ليلتها فإنا نجد قصة موسى والعبد الصالح ضمن القصص التي وردت في هذه السورة الكريمة ، وهي آية واضحة على حث الباحثين والدارسين على الرحلة في طلب العلم ، فلقد ارتحل موسى عليه السلام إلى حيث يجد العبد الصالح لأن الله أخبره أن لديه علماً لا يوجد عند نبي الله موسى عليه السلام ، وحين وجد موسى العبد الصالح انعقدت علاقة علمية بين التلميذ والأستاذ ووضع الأستاذ المنهج لطالب العلم ، وهذه أركان العلم الثلاثة : أستاذ ، وتلميذ ، ومنهج ، ولذلك آتت الرحلة في طلب العلم ثمارها المرجوة ونتائجها المرتقبة ، وإذا كان عصرنا الحديث قد خفف كثيراً من قضية الرحلة في طلب العلم من خلال الأجهزة والمخترعات الحديثة التي تجعل المعلومات جميعها بين يديك في لحظات ، فإن المؤرخ بالذات لا يقنع بهذا مع أنه سبيل لراحته ، وتقليل لجهده ، إنه يُصرّ على أن يرتحل وأن يجوب أقطار الدنيا ليقدم عصارة فكره وخلاصة بحثه لأجيال تلو

أجيال .. تواقة للمعرفة ، مشرئبة إلى معرفة تاريخها ، وتاريخ أوطانها وبقاعها ، والأماكن التي تعيش في ربوعها .

رابعاً : وحين نقترب أكثر وأكثر من المؤلِّف والمؤلَّف نجد أن هذا السفر القيم: القول المكتوب في تاريخ الجنوب : عسير وجازان والقنفذة يعكس جوانب تاريخية وحضارية متنوعة عن هذه المناطق الثلاث (عسير وجازان والقنفذة) في العصر الحديث والمعاصر ، وقد جاء في ستة أقسام رئيسة تدور في فلك بلاد عسير وجازان والقنفذة إضافة إلى مقدمة وخاتمة وملحق لبعض الوثائق وجاءت هذه الأقسام على النحو التالي :

القسم الأول : جازان في عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين .

القسم الثاني : : فهرس وثائق وبحوث غير منشورة عن جازان في مكتبة المؤلف العلمية .

القسم الثالث : عسير وجازان في أقوال بعض من عرفهما أو عاش فيهما .

القسم الرابع : منطقة جازان كما سمعت عنها ورأيتها .

القسم الخامس : عبد الله بن علي بن حميد وابنه محمد في أقوال بعض من عرفهما أو عاصرهما .

القسم السادس : تصويبات وإضافات وانتقادات على كتاب : بلاد القنفذة خلال خمسة قرون ، وكتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب وعسير والقنفذة ، الجزء الثاني .

ثم الخاتمة والملاحق .

والناظر المدقق في هذه الأقسام الستة يمكن أن يخرج بعدة نتائج تحسب للمؤلِّف وللمؤلَّف وهي كما يأتي :

١- لم يكتف المؤرخ الكبير غيثان بن جريس بالإفادة من آراء الرحالين المسلمين فقط ، بل ضم إليهم آراء الرحالة غير المسلمين ، وهذا هو العلم الحقيقي الذي لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين عقيدة وعقيدة (لكم دينكم ولي دين) ، ولكنه يبحث عن المعلومة الصحيحة الموثقة وهذا ديدن المؤمن ، الحكمة ضالته ، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها ، ولقد ورد : خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجَتْ .

وإذا كنا قد تعلمنا بأن نأخذ العلم أولاً من بني جلدتنا ، ورواد عقيدتنا وأساتذتنا ومشايخنا ، فإنا قد أمرنا أيضاً ألا نغلق أعيننا وأفكارنا عما وصل إليه العلماء في بلاد أوروبا والغرب ، وأن نأخذ منهم ما يضيف إلى فكرنا ، بشرط ألا يتعارض مع عقيدتنا وثوابتنا ويجب فقط أن نتعامل معهم بحذر ، لأنه إذا كان منهم من يؤلفون في العلم لذات العلم ، فإن كثيراً منهم ربما يبذرون سمومهم في بعض مؤلفاتهم — إن تلميحاً أو تصريحاً — لينالوا من عقيدتنا ومن لغتنا ومن تاريخنا ، لكن — بحمد الله — كان مؤرخنا الغيثاني على بَصَر بما يكتب ، وعلى حَذر فيما ينقل خاصة إذا نقل عن رحالة غير مسلمين .

٢- المؤلِّف كَلِفٌ بالعلم ، توَّاق إلى المعرفة ، ولا أدلَّ على ذلك من وجود مكتبة له عامرة بآلاف الكتب والمصادر والمراجع في تخصصه وفي غير تخصصه ، مكتبة أفاد منها أيما إفادة في القسم الثاني من هذا المؤلف حيث ذكر لنا وثائق عدة وبحوثاً كثيرة غير منشورة تحدثت عن جازان

وأرجح أن هذا مما يتفرد به هذا السفر العظيم ، ومع أن المؤلف الكريم قد حصل على أعلى درجة علمية منذ أمدٍ بعيد إلا أنه لم يركن إلى الدَّعة والكسل – كما يفعل بعضهم – إنه يواصل العطاء إلى آخر رمق من حياته وهذا لون من ألوان شكر الله على نعمة العلم.

٣- ومن أجل مزيد من التوثيق التاريخي للمعلومات التي يسوقها المؤلف في كتابه أفرد القسم الثالث لأقوال بعض من عرف عسير وجازان أو عاش فيهما ، فالمؤلف لم يكتف بما ذكر عن هاتين البلدتين من المصادر والمراجع والوثائق التاريخية ، ولكنه أراد أن يشرك (شاهدي عيان) للاستئناس بآرائهم وأفكارهم ومشاعرهم تجاه هاتين البلدتين ، وهذا مما يجعل القارئ مطمئناً إلى المعلومات التي وردت في هذا الكتاب وشهادة الوقائع – كما يقول العلماء – هي أقوى دليل على وثاقة المعلومة ، وعلى دقَّتها ، وعلى أصالتها .

٤- ولم ينس المؤلف أن يضيف انطباعاته وآراءه وأفكاره من خلال رؤيته هو لمنطقة جازان وسماعه عنها ، فأضاف رأياً إلى رأي ، وفكراً إلى فكر ، ورؤية إلى رؤية ، وسماعاً إلى سماع .

٥- اختار المؤلف علمين من أعلام الحياة الفكرية ورمزين من رموز الحياة الثقافية في منطقة (عسير) خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري وهما : عبد الله بن علي بن حميد وابنه محمد ، وسلَّط الأضواء عليهما ، مسترشداً بآراء أهل الفكر ، مستعيناً باستكتاب بعض رموز الثقافة الذين عرفوا الرجلين وسبروا أغوارهما ، واختار أقوالاً ثلاثة عن

هذين العلمين وذلك لتكاملهم ودقة إجابتهم على الأسئلة التي وجهت إليهم عن هذين العالمين الفاضلين ، لكن : لماذا فعل المؤلف هذا ؟ إن ذلك في يقيني يعود إلى أن العالم يعد مرآة لعصره ، وانعكاساً لثقافته ، ودليلاً نابضاً حَيّاً على عادات البلاد وتقاليدها .

٦- في القسم السادس من هذا السفر القيم ذكر المؤلف تصويبات وإضافات وانتقادات على كتابين : بلاد القنفذة خلال خمسة قرون ، والقول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) الجزء الثاني ، وهذه التصويبات والإضافات والانتقادات كان المؤلف قد تلقاها على المادة العلمية الواردة في هذين الكتابين ، وإضافة هذا القسم إلى هذا المؤلَّف دليل على جرأة المؤلِّف وشجاعته ، وأنه يبغي العلم لذات العلم ، فهو لا يضيق بنقد يوجَّه إلى ما كتب ، ولا يتذمَّر بتصويب ، بل يرحب بالنقد العلمي الهادف بالتصويب الدقيق الخالص ، والإضافات التي تصدر من أقلام طاهرة وقلوب طيبة ، وأفكار نيّرة ، إنه إضافة فكر إلى فكر ، وعلم إلى علم ، والعلم لم يقل بعد كلمته الأخيرة ، ومن الذي ما ساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط ؟ ، وقديماً قيل : (رحم الله رجلاً أهدى إلي عيوبي) .

إن العلم في الإسلام ليست له حدود زمانية ، وليست له حدود مكانية، ومن ظن أنه علم فقد جَهِل ، (وفوق كل ذي علم عليم) ومن هذا المنطلق يأتي هذا القسم السادس من أقسام هذا الكتاب يوجه المؤلف من خلاله رسالة إلى جميع الباحثين والدارسين ، مذكراً إياهم بما ورد عن رسول الله ﷺ (تعلموا

العلم وتعلموا للعلم السكينة والحِلْم وتواضعوا لمن تعلَّمون منه) أو كما قال ﷺ.

أجل .. إنها قيمة التواضع التي تتبدَّى في هذا القسم من أقسام الكتاب بل في الكتاب كُلّه ، وإذا تواضع العالِم حالفه التوفيق ، وهداه الله إلى أقوم طريق ، ونفع بعلمه ، وجعل له ذكراً حسناً في الأولين والآخرين .

وإذا كانت لي كلمة في ختام هذا العرض الموجز لهذا السفر القيم فإني أهمس في أذن أخي الأستاذ / غيثان بن جريس بضرورة مراجعة الكتاب لغوياً وأسلوبياً قبل إخراجه إلى الناس ، ذلك أنه عند تصفحي للكتاب عثرت على أخطاء لغوية وأسلوبية وإملائية وطباعية عديدة ، إضافة إلى الأخطاء النحوية التي تشوه صورة أي مؤلَّف يخرج إلى الناس ، لأن المؤلَّف يكون ملكاً لصاحبه ما لم يخرج إلى النور فإن طُبع وخرج إلى النور وتداوله الناس أصبح ملكاً وكلاً مباحاً لجميع القارئين والباحثين ، لذا فإني أوصي الأخ الكريم بأن يعهد بكل مؤلَّف يصدر عنه إلى أستاذ أو أكثر من أستاذ يكونون متخصصين في مجال اللغة بعامة والتصويب اللغوي بصفة خاصة فلغتنا العربية لغة ديننا ، وبرهان وجودنا ، ودليل ماضينا ، وسرُّ حاضرنا ، وأمارة مستقبلنا ، ومن تهاون في لغته تهاون في دينه ، ويكفي أن شاعر النيل قد قال عنها :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي؟

وأعتقد أن أخي غيثان حريص على عقيدته ، حَفِيٌّ بلغته ، ولن يدخر وسعاً في سبيل تنقية كتبه مما شابها من أخطاء ، بغية الوصول بها إلى أنقى صورة ولتبرز إلى عالم الفكر والثقافة في ثوب قشيب ولسان حالها يقول :

(هاؤم اقرأوا كتابيه)

تحية حب وتقدير إلى أخي الأستاذ / غيثان بن علي بن جريس وهنيئاً له هذا السفر القيم ليضيف لبنة أخرى في عقد مؤلفاته ، وشكر الله له حسن خُلقه وجميل صبره ، وأثمن فيه دأبه على حب العلم ومواصلة البحث والدرس ، وأسأل الله له ولنا ولجميع الباحثين والباحثات مزيداً من التوفيق والسداد ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

(١٤٣٣/١/١٠هـ)